تفسير سورةُ فصلت

من آية (19) إلى آية (29)

اللقاء الثالث

المعنى الإجمالي من آية (9) إلى آية (18):

يقولُ تعالى آمرًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بتوبيخِ المشركينَ وبيانِ مَظاهِرِ قُدرتِه سبحانَه: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- للمُشرِكينَ: أَإنَّكم لَتكفُرونَ باللهِ الَّذي خَلَق الأرضَ في يَومَينِ، وتَجعَلونَ له نُظَراءَ وأمثالًا تَعبُدونَهم معه؟! ذلك رَبُّ العالَمينَ! وجعَلَ سُبحانَه في الأرضِ جِبالًا مِن فَوقِها، وبارَكَ فيها، وقَدَّرَ اللهُ فيها أرزاقَها، وذلك في يومَينِ آخَرَينِ؛ فهما مع اليَومَينِ السَّابِقَينِ أربعةُ أيَّامٍ استَوت استواءً، فلا زيادةَ على ذلك ولا نقصانَ، بيَّنَّا ذلك لِمَن سأل: في كم خُلِقت الأرضُ بما فيها؟

ثمَّ ارتفَع اللهُ وعَلا قاصدًا إلى خَلْقِ السَّماءِ وهي دُخَانٌ، فقال سُبحانَه للسَّماءِ والأرضِ بعدَ أنْ خلَقَهما: ائتِيَا وانقادَا لِطاعتي اختيارًا أو جَبرًا. قالَتا: أتَيْنا طائِعينَ. فأتَمَّ اللهُ خَلْقَهنَّ سَبْعَ سَمواتٍ في يومَينِ، وأوحَى اللهُ تعالى في كُلِّ سَماءٍ ما أرادَه مِن الخَلقِ والتَّدبيرِ، وزَيَّن اللهُ السَّماءَ الدُّنيا بالنُّجومِ المنيرةِ، وحَفِظَها حِفظًا بهذه النُّجومِ مِن الشَّياطينِ المستَرِقةِ للسَّمْعِ، ذلك الشَّأنُ العَظيمُ تقديرُ العزيزِ القاهِرِ الغالِبِ، العليمِ بكُلِّ شَيءٍ.

يقولُ تعالى مُهدِّدًا المشركينَ: فإنْ أعرَضَ مُشرِكو قَومِك -يا مُحَمَّدُ- عن الحَقِّ الذي دَعَوتَهم إليه، فقُلْ لهم: أنذَرْتُكم عَذابًا شَديدًا يَستأصِلُكم، كالعَذابِ الذي أهلَكَ اللهُ به عادًا وثَمودَ حينَ جاءَتْهم رُسُلُ اللهِ مِن كلِّ جانبٍ، واجتَهدوا في تبليغِهم مِن كلِّ جِهةٍ بألَّا تَعبُدوا إلَّا اللهَ وَحْدَه لا شَريكَ له. قالوا: لو شاء ربُّنا عِبادَتَه وَحْدَه لأرسَلَ إلينا مَلائِكةً مِن السَّماءِ يأمُروننا بذلك، فإنَّا كافِرونَ بتَوحيدِ الله الذي أرسَلَكم به!

ثمَّ يقولُ تعالى -مُفصِّلًا حالَ كلٍّ مِن عادٍ وثمودَ-: فأمَّا عادٌ فتكَبَّروا في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ، وقالوا: لا أحَدَ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً!

ثمَّ يردُّ اللهُ تعالى عليهم، فيقولُ: أوَلَم يَروا أنَّ اللهَ الذي خلَقَهم من العَدَمِ هو أشَدُّ منهم قُوَّةً؟! وكان أولئك الكُفَّارُ جاحِدينَ بآياتِ اللهِ.

ويَذكُرُ سبحانَه ما نزَل بهم مِن العذابِ، فيقولُ: فأرسَلْنا عليهم رِيحًا عظيمةً شَديدةَ البَردِ والصَّوتِ في أيَّامٍ مَشؤوماتٍ عليهم؛ لكي نُذيقَهم العذابَ الذي يُهينُهم ويُذِلُّهم في الحياةِ الدُّنيا، ولَعَذابُ الآخِرةِ أشَدُّ خِزيًا وإهانةً وإذلالًا لهم!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى حالَ ثمودَ وما نزَل بهم مِن العذابِ، فيقولُ: وأمَّا ثَمودُ فأرشَدْناهم إلى طَريقِ الحَقِّ فآثَروا الكُفرَ على الإيمانِ، والضَّلالَ على الهُدى؛ فأهلَكَهم اللهُ بصَيحةِ العَذابِ المذِلِّ المهينِ؛ بسَبَبِ ما كانوا يَكسِبونَه مِن الآثامِ، ونجَّينا مِن العَذابِ صالحًا والمؤمنينَ معه المتَّقينَ رَبَّهم بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نهى.

(أعوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ)

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ﴿19﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها: لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالَى كَيفيَّةَ عُقوبةِ أولئك الكُفَّارِ في الدُّنيا، أردَفَه بكَيفيَّةِ عُقوبةِ الكُفَّارِ أولئك وغيرِهم في الآخِرةِ؛ ليحصُلَ منه تمامُ الاعتبارِ في الزَّجرِ والتَّحذيرِ. الدرر السنية

(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) أي: واذكُرْ يومَ يَجمَعُ اللهُ أعداءَه الكافِرينَ به، فيُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم حتَّى يجتَمِعوا ويُساقوا إلى النَّارِ سَوقًا عَنيفًا. موسوعة التفسير

والوَزعُ: كَفُّ بَعضِهم عن بَعضٍ، ومَنعُهم مِنَ الفَوضى، وهو كِنايةٌ وعِبارةٌ عن كَثرةِ المحشورينَ. الدرر السنية

وقال ابنُ عُثَيمين: (ولها معنًى آخَرُ أيضًا: يُساقون بالتوزيعِ، يعني: أنَّهم طوائفُ وأممٌ، .... كلُّ أمَّةٍ وحدَها).

وقال ابنُ عُثيمين: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقا عنيفًا، لا يستطيعون امتناعًا، ولا ينصرون أنفسهم، وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ.

كما قال تعالَى: وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا [مريم: 86].

وقال سُبحانَه: يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا [الطور: 13].

﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿20﴾

(حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي: حتَّى إذا جاء الكُفَّارُ النَّارَ شَهِدَ عليهم سَمعُهم وأبصارُهم وجُلودُهم بما كانوا يَعمَلونَ بها في الدُّنيا مِن آثامٍ. موسوعة التفسير

قال ابنُ الجوزي: (وفي المرادِ بالجُلودِ ثلاثةُ أقوالٍ: أحَدُها: الأيدي والأرجُلُ. والثاني: الفُروجُ. رُوِيَا عن ابنِ عبَّاسٍ. والثَّالثُ: أنَّه الجُلودُ نَفسُها).

قال ابن عاشور: شَهادةُ جَوارِحِهم وجُلودِهم عليهم: شَهادةُ تَكذيبٍ وافتِضاحٍ؛ لِأنَّ كَونَ ذلك شَهادةً يَقتَضي أنَّهم لَمَّا رَأَوُا النارَ اعتَذَروا بإنكارِ بعضِ ذُنوبِهم؛ طَمَعًا في تَخفيفِ العَذابِ، وإلَّا فقدْ عَلِمَ اللهُ ما كانوا يَصنَعونَ، وشَهِدتْ به الحَفَظةُ، وقُرِئَ عليهم كِتابُهم، وما أُحضِروا لِلنَّارِ إلَّا وقدْ تَحقَّقتْ إدانَتُهم، فما كانتْ شَهادةُ جَوارِحِهم إلَّا زِيادةَ خِزيٍ لهم، وتَحسيرًا وتَنديمًا على سُوءِ اعتِقادِهم في سَعةِ عِلْمِ اللهِ.

قال ابن عاشور: وتَخصيصُ السَّمعِ والأبصارِ والجُلودِ بالشَّهادةِ على هؤلاء دُونَ بَقيَّةِ الجَوارحِ؛ لِأنَّ لِلسَّمعِ اختِصاصًا بتَلَقِّي دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَلَقِّي آياتِ القُرآنِ؛ فسَمْعُهم يَشهَدُ عليهم بأنَّهم كانوا يَصرِفونَه عن سَماعِ ذلك، كما حكَى اللهُ عنهم بقولِه: وَفِي آَذَانِنَا وَقْرٌ [فصلت: 5]، ولِأنَّ لِلأبصارِ اختِصاصًا بمُشاهَدةِ دَلائِلِ المصنوعاتِ الدَّالَّةِ على انفرادِ اللهِ تعالَى بالخَلقِ والتَّدبيرِ، فذلك دَليلُ وَحدانيَّتِه في إلهيَّتِه، وشَهادةُ الجُلودِ؛ لِأنَّ الجِلدَ يَحوي جَميعَ الجَسَدِ؛ لِتَكونَ شَهادةُ الجُلودِ عليهم شَهادةً على أنْفُسِها، فيَظهَرَ استِحقاقُها لِلحَرقِ بالنَّارِ لِبَقيَّةِ الأجسادِ دُونَ اقتِصارٍ على حَرقِ مَوضِعِ السَّمعِ والبَصَرِ؛ ولذلك اقتَصَروا في تَوجيهِ المَلامةِ على جُلودِهم؛ لأنَّها حاويةٌ لِجَميعِ الحَواسِّ والجَوارحِ، وبهذا يَظهَرُ وَجهُ الاقتِصارِ على شَهادةِ السَّمعِ والأبصارِ والجُلودِ هنا، بخِلافِ آيةِ سُورةِ (النُّورِ): يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النور: 24]؛ لِأنَّ آيةَ (النُّورِ) تَصِفُ الذين يَرمونَ المحصَناتِ، وهمُ الذين اختَلَقوا تُهمةَ الإفْكِ، ومَشَوْا في المجامعِ يُشيعونَها بيْنَ الناسِ، ويُشيرونَ بأيديهم إلى مَنِ اتَّهَموه إفْكًا.

كما قال الله تعالَى: (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) [الإسراء: 36].

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿21﴾

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا) أي: وقال الكُفَّارُ عِتابًا لجُلودِهم، وإنكارًا عليهم حينَ شَهِدَت عليهم: لِمَ شَهِدْتُم علينا بما كُنَّا نَعمَلُه مِنَ السَّيِّئاتِ في الدُّنيا. موسوعة التفسير

(قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) أي: فأجابتِ الجُلودُ أصحابَها: أنطَقَنا اللهُ الذي أنطَقَ كُلَّ شَيءٍ بقُدرتِه ومَشيئتِه، فنطَقْنا بغَيرِ اختيارٍ مِنَّا. موسوعة التفسير

وقال سُبحانَه: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [يس: 65].

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا عِندَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فضَحِكَ، فقال: هل تَدرُونَ مِمَّ أضحَكُ؟! قُلْنا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ! قال: مِن مُخاطَبةِ العَبدِ رَبَّه؛ يقولُ: يا رَبِّ ألَمْ تُجِرْني مِنَ الظُّلمِ؟ قال: يقولُ: بلَى! قال: فيقولُ: فإنِّي لا أُجيزُ على نَفسي إلَّا شاهِدًا مِنِّي! قال: فيقولُ: كَفَى بنَفسِك اليومَ عليك شَهيدًا، وبالكِرامِ الكاتِبينَ شُهودًا. قال: فيُختَمُ على فيه، فيُقالُ لأركانِه "أي: لجوارحِه": انطِقي. قال: فتَنطِقُ بأعمالِه، ثم يُخَلَّى بيْنَه وبيْنَ الكلامِ، قال: فيقولُ: بُعدًا لَكُنَّ وسُحقًا؛ فعَنْكُنَّ كنتُ أُناضِلُ "أُدافِعُ وأُجادِلُ".!)) رواه المسلم.

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حديثِ الرُّؤيةِ الطَّويلِ، وفي آخِرِه أنَّ اللهَ يُحاسِبُ المنافِقَ: ((فيَقولُ: يا رَبِّ آمَنتُ بك وبِكِتابِك وبرُسُلِك، وصَلَّيتُ وصُمتُ وتصَدَّقتُ، ويُثْني بخَيرٍ ما استطاعَ! فيقولُ: ها هنا إذَنْ، ثُمَّ يُقالُ له: الآنَ نَبعَثُ شاهِدَنا عليك! ويتفَكَّرُ في نَفسِه: مَن ذا الذي

يَشهَدُ علَيَّ؟! فيُختَمُ على فيه، ويُقالُ لِفَخِذِه ولحمِه وعِظامِه: انطِقِي، فتَنطِقُ فَخِذُه ولحَمُه وعِظامُه بعَمَلِه؛ وذلك لِيُعذِرَ مِن نَفسِه، وذلك المنافِقُ، وذلك الَّذي يَسخَطُ اللهُ عليه)) رواه مسلم.

وعن مُعاويةَ بنِ حَيْدةَ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أوَّلُ ما يُعرِبُ "يَنطِقُ ويتَكَلَّمُ" عن أحَدِكم فَخِذُه)).

(وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) أي: واللهُ خلَقَكم أوَّلَ مَرَّةٍ ولم تكونوا شيئًا؛ فالذي قَدَر على ذلك قادِرٌ على إنطاقِ الجُلودِ. موسوعة التفسير

وقال السعديُّ: (فكما خلَقَكم بذواتِكم، وأجسامِكم، خلَقَ أيضًا صفاتِكم، ومِن ذلك الإنطاقُ... ويحتَمِلُ أنَّ المرادَ بذلك: الاستِدلالُ على البَعثِ بالخَلقِ الأوَّلِ، كما هو طريقةُ القُرآنِ).

قال الألوسي: (قَولُه تعالى: وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن تمامِ كَلامِ الجُلودِ ومَقولِ القَولِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ مُستأنَفًا مِن كَلامِه عزَّ وجلَّ، والأوَّلُ أظهَرُ. والمرادُ على كُلِّ حالٍ: تقريرُ ما قَبلَه بأنَّ القادِرَ على الخَلقِ أوَّلَ مَرَّةٍ قادِرٌ على الإنطاقِ).

(وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) أي: وإلى اللهِ تُرَدُّونَ بعدَ مَوتِكم، فيُجازيكم على أعمالِكم. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: إشارةٌ إلى الحِكمةِ مِن خَلْقِ الخَلْقِ: أنَّهم يُبتَلَوْنَ فيُؤمَرونَ ويُنهَوْنَ، ومآلُهم إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ يُجازيهم بحَسَبِ أعمالِهم التي كَلَّفَهم بها.

قال ابن عثيمين: إثباتُ الرُّجوعِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فاستعِدَّ لهذا الرُّجوعِ، واعلمْ أنَّك مُلاقٍ ربَّك، ولكنْ أبْشِرْ إنْ كنتَ مؤمنًا؛ قال اللهُ تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ [البقرة: 223]، يعني: لا يَخافُ المؤمنُ مِن هذه الملاقاةِ؛ بلْ له البشارةُ في الدُّنيا قبْلَ الآخِرةِ، لكنَّ حَقيقةَ هذه البِشارةِ أنَّها للمُؤمنِ خاصَّةً.

قال ابن القيم –رحمه الله–: للعبد رب هو ملاقيه، وبيت هو ساكنه فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه، ويعمر بيته قبل انتقاله إليه.

وقال عزَّ وجلَّ: (اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [الروم: 11].

وقال تبارك وتعالى: (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [المائدة: 105].

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿22﴾

سَبَبُ النُّزولِ: عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (اجتمَعَ عندَ البَيتِ ثَلاثةُ نَفَرٍ؛ قُرَشِيَّانِ وثَقَفيٌّ، أو ثَقَفيَّانِ وقُرَشيٌّ، قَليلٌ فِقهُ قُلوبِهم، كثيرٌ شَحمُ بُطونِهم، فقال أحَدُهم: أتُرَونَ اللهَ يَسمَعُ ما نقولُ؟ وقال الآخَرُ: يَسمَعُ إنْ جَهَرْنا، ولا يَسمَعُ إنْ أخفَيْنا! وقال الآخَرُ: إنْ كان يَسمَعُ إذا جهَرْنا فهو يَسمَعُ إذا أخفَيْنا! فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ... [فصلت: 22] الآية)

(وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ) أي: وما كُنتُم في الدُّنيا تَستَخْفُونَ بتَرْكِ الكفرِ والمعاصي؛ لِئَلَّا يَشهَدَ عليكم سَمعُكم ولا أبصارُكم ولا جُلودُكم يومَ القِيامةِ.

موسوعة التفسير

حِكايةٌ لِمَا سيُقالُ لهم يومَئذٍ مِن جِهَتِه تعالَى بطَريقِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ تَقريرًا لِجَوابِ الجُلودِ -على قولٍ-، أيْ: ما كُنتُم تستَتِرونَ في الدُّنيا عِندَ مُباشَرَتِكم الفَواحِشَ؛ مَخافةَ أنْ تَشهَدَ عليكم جَوارِحُكم بذلك كما كُنتُم تَستَتِرون مِنَ النَّاسِ؛ مَخافةَ الافتِضاحِ عِندَهم، بلْ كُنتُم جاحِدينَ البَعثَ والجَزاءَ رَأْسًا.

الدرر السنية

قال -عز وجل-: (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا) [النساء: 108].

قال ابنُ عطية: (يحتَمِلُ أنْ يكونَ مِن كَلامِ الجُلودِ ومُحاورتِها، ويحتَمِلُ أنْ يكونَ مِن كَلامِ اللهِ عزَّ وجَلَّ لهم، أو مِن كَلامِ مَلَكٍ بأمْرِه تعالى).

قال الشوكانيُّ: (لَمَّا كانَ الإنسانُ لا يقدِرُ على أنْ يستخفِيَ مِن جوارِحِه عندَ مباشرةِ المعصيةِ كانَ معنَى الاستخفاءِ هنا تركَ المعصيةِ).

(وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ) أي: ولكِنْ ظَنَنْتُم في الدُّنيا أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ كثيرًا مِنَ السَّيِّئاتِ التي كُنتُم تَعمَلونَها. موسوعة التفسير

قال ابن الجوزي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: كان الكفَّارُ يقولونَ: إنَّ اللهَ لا يَعلمُ ما في أنفُسِنا، ولكنَّه يعلمُ ما يَظهرُ).

وقال ابن عاشور: (معنى الآيةِ...: أنَّ اللهَ عليمٌ بأعمالِكم ونيَّاتِكم، لا يخفَى عليه شَيءٌ منها إنْ جهَرْتُم أو سَترْتُم، وليس اللهُ بحاجةٍ إلى شَهادةِ جوارِحِكم عليكم، وما أوقَعَكم في هذا الضُّرِّ إلَّا سُوءُ ظَنِّكم بجلالِ اللهِ).

خرج أعرابي في بعض الليالي الظلم، فاذا هو بجارية كأنها علم، فأرادها، فقالت: ويلك، أما لك زاجر من عقل إذا لم يكن لك ناه من دين؟ فقال لها: إنّه والله ما يرانا إلا الكواكب، فقالت: وأين مكوكبها؟

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿23﴾

(وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) أي: وظَنُّكم السَّيِّئُ هذا قد أهلَكَكم، فأصبَحتُم يومَ القِيامةِ مِنَ الهالِكينَ. موسوعة التفسير

وقال ابن عاشور: والعُدولُ عنِ اسمِ (اللهِ) العَلَمِ إلى بِرَبِّكُمْ؛ لِلتَّنبيهِ على ضَلالِ ظنِّهم؛ إذْ ظنُّوا خَفاءَ بَعضِ أعمالِهم عن عِلمِه، مع أنَّه رَبُّهم وخالِقُهم؛ فكيف يَخلُقُهم وتَخفَى عنه أعمالُهم؟! وهو يُشيرُ إلى قولِه: أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الملك: 14]؛ ففي وَصفِ بِرَبِّكُمْ إيماءٌ إلى هذا المعنى

قال ابن القيم: أعظمُ الذُّنوبِ عندَ اللَّهِ إساءَةُ الظَّنِّ بِهِ؛ فإنَّ المسِيءَ به الظَّنَّ قدْ ظَنَّ به خِلافَ كمالِهِ المقَدَّسِ، وظَنَّ به ما يُناقِضُ أسماءَه وصِفاتِه.

قَالَ الحَسَنُ البَصريُّ: (إنَّ قومًا ألْهتْهم الأمانيُّ حتى خَرَجوا مِنَ الدُّنيا وما لهم حَسَنةٌ، ويقولُ أحَدُهم: إنِّي أُحسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّي، وكَذَبَ! ولو أحسَنَ الظَّنَّ لأحسَنَ العَمَلَ).

قال الشربيني: فيه تَنبيهٌ على أنَّ مِن حَقِّ المؤمِنِ ألَّا يَذهَبَ عنه ولا يَزولَ عن ذِهنِه أنَّ عليه مِنَ اللهِ تعالى عَينًا كالِئةً، ورَقيبًا مُهيمِنًا؛ حتَّى يكونَ في أوقاتِه وخَلَواتِه مِن رَبِّه أهيَبَ وأحسَنَ احتِشامًا، وأوفَرَ تحفُّظًا وتصوُّنًا منه مع الملأِ، ولا يَنبَسِطَ في سِرِّه؛ خوفًا مِن التشَبُّهِ بهؤلاءِ الظَّانِّينَ.

فتَأمَّلْ هذا الموضعَ، وتأمَّلْ شِدَّةَ الحاجةِ إليه، وكيفَ يَجتمِعُ في قلبِ العبدِ تَيَقُّنُه بأنَّه مُلاقٍ اللَّهَ، وأنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ ويَرَى مَكانَه، ويَعْلَمُ سِرَّه وعلانِيَتَه، ولا يخفَى عليه خافِيَةٌ مِنْ أمْرِه، وأنَّه مَوْقوفٌ بينَ يَدَيْه، ومَسْؤولٌ عن كُلِّ ما عَمِلَ، وهو مُقيمٌ على مَساخِطِه مُضَيِّعٌ لأوامِرِه، مُعَطِّلٌ لحُقوقِه، وهو معَ هذا يُحْسِنُ الظَّنَّ به، وهلْ هذا إلَّا مِنْ خِدَعِ النُّفوسِ، وغُرورِ الأمانِيِّ.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ ﴿24﴾

(فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) أي: فإنْ يَصبِرْ أولئك الكُفَّارُ على النَّارِ، فالنَّارُ مَسكَنٌ لهم ومُستَقَرٌّ، ولا مَخرَجَ لهم مِنها أبدًا. موسوعة التفسير

وقال ابن عاشور: حاصِلَ أمْرِهِم أنَّهم قد زُجَّ بهم في النارِ، فإنْ صَبَروا واستَسلَموا فهمْ باقونَ في النَّارِ، وإنِ اعتَذَروا لم يَنفَعْهمُ العُذرُ، ولم يُقبَلْ منهم تَنصُّلٌ.

كما قال تعالَى -حاكيًا عن أهلِ النَّارِ قولَهم-: سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ [إبراهيم: 21].

وقال سُبحانَه: اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الطور: 16].

(وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ) أي: وإنْ طَلَبوا مِنَ اللهِ الرِّضا عنهم، وقَبولَ توبتِهم واعتِذارِهم عن أعمالِهم السَّيِّئةِ؛ فلا يُؤاخِذُهم بها؛ فلنْ يَرضَى عنهم، ولن يَقبَلَ توبتَهم واعتِذارَهم، ولن يُخرِجَهم مِنَ النَّارِ. موسوعة التفسير

كما قال الله تبارك تعالَى: قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ [المؤمنون: 106 - 108].

وقال عزَّ وجلَّ: فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ [الجاثية: 35].

وقال تبارك وتعالى: وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ [المرسلات: 36].

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿25﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر الوَعيدَ الشَّديدَ في الدُّنيا والآخِرةِ على كُفرِ أولئك الكُفَّارِ؛ أردَفَه بذِكرِ السَّبَبِ الَّذي لأجْلِه وَقَعوا في ذلك الكُفرِ

(وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ) أي: وهيَّأْنا ويَسَّرْنا للكُفَّارِ قُرَناءَ سُوءٍ، قدَّرْنا عليهم مُلازَمتَهم لهم لِيُضِلُّوهم؛ بسَبَبِ جُحودِهم الحَقَّ، وإعراضِهم عن آياتِ اللهِ. موسوعة التفسير

قيل: المرادُ: شَياطينُ الجِنِّ وغُواةُ الإنسِ.

قال ابن عاشور: قَيَّضَ، أي: أتاحَ وهَيَّأ شَيئًا لِلعَمَلِ في شَيءٍ، والقُرَناءُ: جَمعُ قَرينٍ، وهو الصَّاحِبُ الملازِمُ، والقُرَناءُ هنا: همُ الملازِمونَ لهم في الضَّلالةِ؛ إمَّا في الظَّاهِرِ، مِثلُ دُعاةِ الكُفرِ وأئمَّتِه، وإمَّا في باطِنِ النُّفوسِ، مِثلُ شَياطينِ الوَسواسِ، ومَعنى تَقييضِهم لهم: تَقديرُهم لهم.

كما قال عزَّ وجلَّ: وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا [النساء: 38].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا [مريم: 83].

(فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) أي: فحَسَّنوا لهم الحياةَ الدُّنيا وشَهَواتِها المحرَّمةَ، حتَّى افتَتَنوا بها وآثَروها على الآخِرةِ، وحَسَّنوا لهم التَّكذيبَ بالبَعثِ والجَزاءِ. موسوعة التفسير

قال ابنُ عاشور: (مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يُستعارُ للأُمورِ المشاهَدةِ، وَمَا خَلْفَهُمْ يُستعارُ للأُمورِ المغَيَّبةِ. والمرادُ بـ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أمورُ الدُّنيا، أي: زَيَّنوا لهم ما يَعمَلونه في الدُّنيا مِنَ الفَسادِ؛ مِثلُ عِبادةِ الأصنامِ، وقَتلِ النَّفْسِ بلا حَقٍّ، وأكْلِ الأموالِ، والعُدوانِ على النَّاسِ باليَدِ واللِّسانِ، والميسِرِ، وارتِكابِ الفَواحِشِ، والوَأْدِ. فعَوَّدوهم باستِحسانِ ذلك كُلِّه لِما فيه مِن مُوافَقةِ الشَّهَواتِ والرَّغَباتِ العارِضةِ القَصيرةِ المدى، وصَرَفوهم عن النَّظَرِ فيما يُحيطُ بأفعالِهم تلك مِنَ المفاسِدِ الذَّاتيَّةِ الدَّائِمةِ. والمرادُ بـ وَمَا خَلْفَهُمْ الأُمورُ المغَيَّبةُ عن الحِسِّ مِن صِفاتِ اللهِ، وأُمورِ الآخرةِ مِن البَعثِ والجَزاءِ...).

كما قال تعالى: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) [الزخرف: 36 - 39].

قال البقاعي: فيه أنَّه على العاقِلِ أن يَجتَهِدَ في اختيارِ أصحابِه وأخدانِه وأحبابِه؛ فإنَّ العاقِبةَ فيهم حَسَنةٌ جَسيمةٌ، أو قَبيحةٌ وَخيمةٌ، قال القشيري: وإذا أراد اللهُ بعَبدٍ خَيرًا قَيَّضَ له قُرَناءَ خَيرٍ يُعينونَه على الطَّاعاتِ، ويَحمِلونَه عليها، ويَدْعونَه إليها، وإذا كانوا إخوانَ سُوءٍ حَمَلوه على المخالَفاتِ، ودَعَوْه إليها.

(وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) أي: ووَجَب عليهم عذابُ اللهِ الَّذي قدَّره على الكافِرينَ، في جُملةِ أُمَمٍ قد مَضَت قَبْلَهم مِن كُفَّارِ الجِنِّ والإنْسِ. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: أبْيَنُ دَليلٍ على تَكليفِ الثَّقَلَينِ: الجِنِّ والإنْسِ، وتَعَلُّقِ الأمرِ والنَّهيِ بهم، وكذلك تَعَلُّقُ الثَّوابِ والعِقابِ بهم.

قال الشنقيطي: (المراد بالقولِ والكلمةِ... هو قولُه تعالى: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [هود: 119].

(إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) أي: إنَّ الأُمَمَ الكافِرةَ الَّتي وَجَب عليها عَذابُ اللهِ مِنَ الجِنِّ والإنسِ مِن السَّابِقينَ واللَّاحِقينَ: كانوا مَغبونينَ ببَيعِهم رِضا اللهِ ورَحمتَه بسَخَطِه وعَذابِه، وخَسِروا أعمالَهم الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا، وخَسِروا أنفُسَهم وأهليهم في الآخِرةِ. موسوعة التفسير

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ ﴿26﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن عاشور: أنَّها حِكايةٌ لِحالٍ أُخرى مِن أحوالِ إعراضِهم عن دعوةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ بَعدَ أنْ وَصَفَ إعراضَهم في أنْفُسِهم انتَقَلَ إلى وَصْفِ تَلقينِهمُ النَّاسَ أساليبَ الإعراضِ

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ) أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ خَوفًا مِن تأثيرِ القُرآنِ: لا تُنصِتوا لهذا القُرآنِ فتَنقادُوا له. موسوعة التفسير

وهذا الوليد بن المغيرة، وهو كافر يظهر العداوة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصف القرآن الكريم وصفا دقيقا وصادقا يشهد بفضل كلام الله وعظمته وتميزه عن كلام المخلوقين، جاء إلى النبيّ -ﷺ- فقرأ عليه القرآن. فكأنّه رقّ له، وقال: يا عجبا لما يقول ابن أبي كبشة- يعني محمدا -ﷺ- فو الله ما هو بشعر، ولا سحر، ولا بهمز من الجنون، وإنّ قوله لمن كلام الله.... والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى عليه. فقال أبو جهل: والله ما يرضى عنك قومك حتى تقول فيه قولا. قال: فدعني أفكر، فلما فكّر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره.

(وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) أي: ائْتُوا باللَّغوِ عندَ قراءتِه، وتكلَّموا بالباطِلِ مِنَ القَولِ إذا سَمِعتُم قارئَه يَقرَؤُه؛ رجاءَ أن تَغلِبوا بذلك مُحمَّدًا وأتْباعَه. موسوعة التفسير

قال القرطبي: (وَالْغَوْا فِيهِ قال ابنُ عبَّاسٍ: قال أبو جهلٍ: إذا قرَأ مُحمَّدٌ فصيحوا في وجهِه حتَّى لا يدري ما يقولُ. وقيل: إنَّهم فعَلوا ذلك لَمَّا أعجَزَهم القرآنُ. وقال مجاهدٌ: المعنى: وَالْغَوْا فِيهِ بالمكاءِ والتَّصفيقِ والتَّخليطِ في المنطِقِ حتَّى يَصيرَ لَغْوًا. وقال الضَّحَّاكُ: أكثِروا الكلامَ لِيَختَلِطَ عليه ما يقولُ. وقال أبو العاليةِ وابنُ عبَّاسٍ أيضًا: قِعوا فيه وعَيِّبوه).

وقال البِقاعي: (لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ أي: لِيَكونَ حالُكم حالَ مَن يُرجَى له أن يَغلِبَ ويَظفَرَ بمُرادِه في ألَّا يميلَ إليه أحدٌ، أو يَسكُتَ أو ينسَى ما كان يقولُ).

قال ابن عاشور: يَقولُ أئِمَّةُ الكُفرِ لِعامَّتِهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-: لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ؛ فإنَّهم عَلِموا أنَّ القُرآنَ كَلامٌ هو أكمَلُ الكَلامِ، وأيْقَنوا أنَّ كُلَّ مَن يَسمَعُه وتُداخِلُ نَفْسَه جَزالةُ ألفاظِه وسُمُوُّ أغراضِه، قَضى له فَهْمُه أنَّه حَقٌّ اتِّباعُه، وقد أدْرَكوا ذلك بأنْفُسِهم، ولكِنَّهم غالَبَتْهم مَحَبَّةُ الدَّوامِ على سِيادةِ قَومِهم، فتَمالَؤوا ودَبَّروا تَدبيرًا لِمَنعِ النَّاسِ مِن استِماعِه، وذلك خَشيةَ مِن أنْ تَرِقَّ قُلوبُهم عِندَ سَماعِ القُرآنِ، فصَرَفوهم عن سَماعِه، وهذا مِن شَأنِ دُعاةِ الضَّلالِ والباطِلِ أنْ يَكُمُّوا أفواهَ النَّاطِقينَ بالحَقِّ والحُجَّةِ، بما يَستَطيعونَ مِن تَخويفٍ وتَسويلٍ، وتَرهيبٍ وتَرغيبٍ ....

قال الطيبي: في هذا تَعريضٌ بمَن لا يَكونُ عِندَ كَلامِ اللهِ المَجيدِ خاضِعًا خاشِعًا مُتَفكِّرًا مُتَدبِّرًا، وتَهديدٌ ووَعيدٌ شَديدٌ لِمَن يَصدُرُ عنه عِندَ سَماعِه ما يُشَوِّشُ على القارِئِ ويَخلِطُ عليه القِراءةَ، وإرعادٌ وإبراقٌ لِمَن يُدرَكُ منه قِلَّةُ مُبالاةٍ به؛ فَضلًا عمَّن يَنبِذُه وَراءَه ظِهْرِيًّا، واشتغَلَ بما يُنافِيهِ مِن العُلومِ المَذمومةِ، فانْظُرْ إلى عَظَمةِ القُرآنِ المَجيدِ، وتأمَّلْ في هذا التَّغليظِ والتَّشديدِ، واشهَدْ لِمَن عظَّمَه، وأجَلَّ قَدْرَه، وألْقَى إليه السَّمعَ وهو شَهيدٌ؛ بالفَوزِ العظيمِ، والأجرِ الكبيرِ.

قال ابن عثيمين: أنَّه لا يجوزُ اللَّغَطُ والضَّوضاءُ حِينَ قِراءةِ القرآنِ، فإمَّا أنْ يَستمِعَ المرءُ إليه، وإمَّا أنْ يقومَ، أمَّا أنْ يَجلِسَ إلى قارئِ القرآنِ، ويُثيرَ الأصواتَ واللَّغَطَ والضَّوضاءَ؛ فهذا أقَلُّ ما فيه أنَّه شبيهٌ بصنيعِ المشركين، ويتفرَّعُ على ذلك: ما يَفعلُه بعضُ النَّاسِ في مَتاجرِهم ومَساكنِهم مِن تشغيلِ المسَجِّلِ بقراءةِ القرآنِ، وتَجِدُهم يَصدُرُ منهم الضَّوضاءُ، ويتكلَّمون بقبيحِ الكلامِ، فمِثلُ هذا يُعَدُّ إهانةً للقرآنِ، وإنْ لم يَقصِدْه الإنسانُ، فإنَّ صورتَه صورةُ الامتِهانِ، فإمَّا أنْ يَستمِعَ الشَّخصُ إلى كلامِ اللهِ؛ وإمَّا أنْ يُغلِقَ المسجِّلَ.

قال ابن تيمية: (يمنع كل) ما يَشْغَلُ القارئَ والمستَمِعَ عن التَّدَبُّرِ والفَهمِ، مِثلُ كَونِه يُخايِلُ ويَضحَكُ، فكيف واللَّغوُ والضَّحِكُ حالَ القِراءةِ: مِن أعمالِ المشرِكينَ.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿27﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال السعدي: لَمَّا ذَكَر إعراضَ الكُفَّارِ عن القُرآنِ وتواصِيَهم بذلك ظُلمًا منهم وعِنادًا، لم يَبْقَ فيهم مَطمَعٌ للهِدايةِ، فلم يَبْقَ إلَّا عَذابُهم ونَكالُهم؛ لهذا قال الله تعالى

(فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا) أي: فلَنُذيقَنَّ هؤلاءِ الَّذين كَفَروا بالحَقِّ عَذابًا شَديدًا. موسوعة التفسير

وقال البقاعي: (عَذَابًا شَدِيدًا في الدُّنيا بالحِرمانِ وما يَتْبَعُه مِن فُنونِ الهَوانِ، وفي الآخِرةِ بالنِّيرانِ).

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي: ولَنُثيبَنَّهم جزاءَ أسوَأِ ما كانوا يُواظِبونَ على عَمَلِه مِنَ السَّيِّئاتِ. موسوعة التفسير

وقال السعدي: (أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ وهو الكفرُ والمعاصي؛ فإنَّها أسْوَأُ ما كانوا يعمَلون؛ لِكَونِهم يَعمَلون المعاصيَ وغيرَها، فالجزاءُ بالعقوبةِ إنَّما هو على عمَلِ الشِّركِ).

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ﴿28﴾

(ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ) أي: ذلك العَذابُ الَّذي نَجزي به الكُفَّارَ: هو النَّارُ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: (الإشارةُ بـ ذَلِكَ إلى ما تقدَّمَ، وهو الجزاءُ والعذابُ الشَّديدُ على أسوأِ أعمالِهم. وأعداءُ اللهِ: هم المشرِكونَ).

(لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ) أي: لهم في النَّارِ دارُ الخُلودِ والمكْثِ الدَّائِمِ إلى غَيرِ نِهايةٍ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: (والخُلدُ: طُولُ البَقاءِ، وأُطلِقَ في اصطِلاحِ القُرآنِ على البَقاءِ المؤبَّدِ الَّذي لا نِهاية له).

(جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) أي: جازَيْناهم بذلك؛ بسَبَبِ أنَّهم كانوا في الدُّنيا يَكفُرون ويُكَذِّبون بآياتِنا. موسوعة التفسير

قال العثيمين: أنَّ التَّكذيبَ بآياتِ اللهِ رِدَّةٌ؛ لأنَّ اللهَ وَصفَ المكذِّبينَ بأنَّهم أعداءٌ، وأنَّ جَزاءَهم دارُ الخُلدِ، وهذا أمرٌ مُتَّفَقٌ عليه: أنَّ مَن كَذَّبَ اللهَ ورَسولَه فإنَّه مُرتَدٌّ كافِرٌ، يُستتابُ، فإنْ تاب وأقرَّ، وإلَّا قُتِلَ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿29﴾

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) أي: وقال الَّذين كَفَروا: يا رَبَّنا أرِنا مَن أضَلَّانا عن الحَقِّ مِن شَياطينِ الجِنِّ والإنسِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا [الفرقان: 27 - 29].

وقال سُبحانَه: قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ [ق: 27، 28].

(نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ) أي: نَجعَلْ هَذينِ اللَّذَينِ أضَلَّانا تحت أقدامِنا؛ لِيَكونا دونَنا، وأسفلَ مِنَّا في النَّارِ، وأشَدَّ مِنَّا في العذابِ، فنَشتَفِيَ منهما. موسوعة التفسير

قال الماوَرْدي: (يحتمِلُ قَولُه: مِنَ الْأَسْفَلِينَ وَجهَينِ؛ أحَدُهما: مِنَ الأذَلِّينَ. الثَّاني: مِنَ الأشَدِّينَ عذابًا؛ لأنَّ مَن كان في أسفَلِ النَّارِ كان أشَدَّ عَذابًا).

كما قال تعالى: قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ [الأعراف: 38].

قال العثيمين: أنَّ الإنسانَ يجبُ عليه أنْ يَبتعِدَ عن قُرَناءِ السوءِ، وقد حَذَّر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن جليسِ السوءِ؛ فقال: ((المرءُ على دِينِ خَليلِه؛ فلْيَنْظُرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ))، وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((مَثَلُ الجليسِ السَّوءِ كنافِخِ الكِيرِ؛ إمَّا أنْ يُحرِقَ ثيابَك، وإمَّا أنْ تَجِدَ منه رائحةً خبيثةً))، فاحذَرْ قرينَ السُّوءِ لا تَجتَمِعْ به، لا تُصَادِقْه، لا تَسْتَأْمِنْه على أيِّ شَيءٍ.

فهي السمُّ النَّاقع، والبلاء الواقع، فتجدهم يشجعون على فعل المعاصي والمنكرات، ويرغِّبون فيها، ويفتحون لمن خالطهم وجالسهم أبواب الشرور، ويزيّنون لمجالسيهم أنواع المعاصي، ويحثُّونهم على أذيَّة الخلق، ويذكِّرونهم بأمور الفساد، التي لم تَدُرْ في خَلَدِهم، وإن همَّ أحدهم بتوبةٍ وانزجارٍ عن المعاصي، حسَّنوا عنده تأجيل ذلك، وطولَ الأمل، وأن ما أنت فيه أهون من غيره، وفي إمكانك التوبة والإنابة إذا كبرت في السن، وما يحصل من مخالطتهم ومعاشرتهم أعظم من هذا بكثير.

وتأمَّل في حال أبي طالب ومن كان يجالس، وكيف سرى أثر جلسائه عليه في سوء خاتمته، نسأله سبحانه حسن الختام.

وإن رؤية هؤلاء السيئين لتذكر بالمعصية، وتدعو إليها، فضلاً عن صحبتهم والاختلاط بهم -لا كثرهم الله-، كالذباب إذا انكشفت قطعة الحلوى تجمعوا عليه، فما هو إلا أن تجالس أحدهم وتجانس بعضهم حتى يجرونك إلى ما هو أعلى إثماً وأكبر جرماً، فلا تحس بنفسك إلا وقد وقعت في شباك رذيلتهم وغرقت في بحر غفلتهم، وكلما زاد قربك منهم كلما ازداد بعدك عن رفقاء الخير، وحاملي المسك.